جلسة مجلس «أجمل الأمهات»

حين يوحد الانتظار الملامح

امهات المفقودين في اعتصامهن الاسبوعي عند المتحف

من بين أشياء كيسها الأبيض، تخرج أم إبراهيم صفحة صفراء مطوية لعدد من صحيفة لبنانية يعود إلى العام ١٩٩٣، بتأن تفتح السيدة السبعينية الصفحة على خبر عن اعتصام لأهالي المخطوفين وتقول: «هذه الجريدة كانت مع ابني في ألمانيا، كان يحملها معه أينما ذهب. أخذتها منه عندما أتى ليراني». وبعبارات متداخلة وغير مفهومة، تتابع الأم التي خطف ولدها قبل ربع قرن حديثا داخليا مسموعا يغلب عليه لفظ «إن شاء الله».

مع الخبر صورة للأهالي رسم قربها الابن المهاجر سهما يشير الى شخص في داخلها، وكتب فوقه بأناقة تدل على اعتزازه العميق: أمي.

في الكيس أيضا أوراق أخرى، منها بطاقات تعريف بالمخطوف مهترئة صدرت عن جهات رسمية في فترات الاستراحة بين أشواط الحروب الطويلة.

تخاف أم إبراهيم أن تتحمل مسؤولية التخلص من أي من «وثائقها». وتعتبر أهمها واحدة بالإنكليزية ما هي سوى منشور وزعته قبلا لجنة أهالي المخطوفين نفسها التي تنتمي إليها، للمطالبة بنهاية لإحدى أبشع حكايات الحرب اللبنانية المنصرمة: ١٧ الف مخطوف ومفقود.

أربعاء المتحف

أم إبراهيم واحدة من كثيرات يتقاطرن كل أربعاء الى الرصيف الملاصق للمتحف الوطني ومن كل الجهات التي توصل إليه. هناك عند الرابعة عصرا، يلتئم اعتصام سلمي عماده يافطتان تطالبان «الدولة» بالكشف عن مصير «أولادها». والعدة المتكررة بين الأيادي صور كبيرة لشبان احتفظوا رغما عنهم بقصات شعر وموضة ثياب تعود إلى السبعينيات. وقد اضطرت النساء الى إخلاء مكانهن الأصلي عند المفترق المؤدي الى مقر مجلس الوزراء بعد أن شغلته آليات رجال الأمن قصدا. هدف الاعتصام تذكير الوزراء الوافدين الى الجلسة الأسبوعية بالمطلب الدائم والوحيد.

تفترش أكثر من نصفهن أدراج المتحف جلوسا معتذرات بالنيابة عن «آلام المفاصل والسكري والضغط»، ويبقى النصف الآخر متأهبا للبحث عن وجوه من في داخل سيارات المرسيدس التي تضطر الى المرور عكس السير للوصول إلى مقر الحكومة.

أم تيسير

أم تيسير تنتمي إلى الفريق الثاني، يسبقها صوتها دائما الى الاعتصام، لاعنا الكراسي والجالسين عليها. «لو بدي أموت، رح آجي» ترد باستغراب على من ظن انها لن تأتي. وبعد دقائق من تصدرها الصف الأول تفقد السيدة الفلسطينية أعصابها لتنهال بسيل من التمنيات القاسية أقلها الشلل لأناس تحددهم بالأسماء. وفي إحدى المرات، وبينما كانت النساء يحاولن تهدئتها، مرت سيارة وزير شغل نفسه عن النظر إلى المعتصمات بالقراءة. فنال من أم تيسير مثلا شعبيا انفجر له الجميع ضاحكين وجعلها تنسحب للمرة الأولى الى الصفوف الخلفية، واستغراقها في الضحك يمنعها عن شرح المثل الذي يحكي عن رجل اسمه «الخطيب» يمتاز بمؤخرته النظيفة دوما. ما هي إلا لحظات حتى تعود ملامح الوجه المتعب الى عادتها وتغرق المرأة المتشحة بالسواد في بكاء صامت ومر. وترفع أطراف منديلها مخفية عينيها، لتظهر فوق صدرها سلسلة علقت فيها أربع صور صغيرة لزوجها وأولادها الثلاثة الذين أخذوا أيام الاجتياح من الشارع نفسه الذي تقف فيه.

تنذكر تـ ما تنعاد

في المكان الضيق على شاغليه، نما مجتمع صغير متجانس ينشأ أسبوعيا لساعة فقط. ورغم انتماءات دينية مختلفة تفترض عداء الطرف الآخر بصفته سببا للمأساة، يلتقي الجميع على وعي أعمق للحرب يتعدى الإسقاط على النموذج اللبناني منها الى مفهومها المجرد. وفي هذه المساحة الملتصقة بالتاريخ المشؤوم للبنان، تتشابه الوجوه الى حد يثير الدهشة. هي مزيج من الانتظار الطويل ومحاولة عدم الاعتراف بيأس وأمل لا يتلاشى. وقوفهن مناسبة لتسمع كل امرأة حكاية جارتها المتكررة وتعيد عليها سرد حكايتها. يخف بذلك الهم الفردي المطبق على القلوب ويتخذ مؤقتا طابعا جماعيا. فتفسح القضية الأساس مجالا لمزاح خجول و«عصرونيات» متفرقة. ويزيد من تلاحم هذا المجتمع عزلته حتى عن الطريق أمامه. فالمشهد يصير شديد الغرابة حين يتبادل المعتصمون نظرات صامتة مع المنتظرين في سياراتهم يد الشرطي ليتابعوا طريقهم. هؤلاء يحاولون ما أمكنهم إظهار لا مبالاتهم، ربما لأنهم لا يريدون ان يتذكروا، أو لأنهم مرتاحون لعدم وجودهم على الرصيف. فأهالي المخطوفين بلا ذنب منهم يرتبطون وثيقا بالحرب التي انتهت على مضض، وإذا كان هناك من باب ينبغي ولوجه لنقاش ما حدث، فهم الباب الوحيد القادر على إغلاق هذا الملف المستدام. لهذا، ربما، تطالب اللجنة وأصدقاؤها بإعلان ١٣ نيسان، يوما للذاكرة والمخطوف تحت عنوان يختصر القضية برمتها: «تنذكر تـ ما تنعاد».

يعلن لف اليافطتين انتهاء الاعتصام. تودع النساء بعضهن ويذبن بعد لحظة في شوارع المدينة، عادة تغيرت لمرة فقط حين اعتصمن أمام قصر الأونيسكو. كان المكان حينها يشهد افتتاح معرض للمؤسسات الأهلية التي تعنى بالمعوقين والأيتام. ومن بين زوايا المعرض واحدة للمخطوفين امتلأت جدرانها بالصور. بعد انتهاء اعتصامهن خارجا، دخلن جميعا إليها، فازدحمت الزاوية المسكينة بأجساد متلاصقة وعيون تبحث بين الصور عن وجوه تعرفها جيدا.

كان باستطاعة كل امرأة ان تنظر إلى يديها لترى مخطوفها، لكن البحث عن القابعين في عتمة المجهول صار إدمانا، يتخذ كل الأشكال التي تخفف ولو قليلا من وجع الانتظار.

جهاد بزي